فليؤمن ومن شاء فليكفر » [1] ، دون إجبار أو إكراه ، فالحرية الفكرية فوق هذا التخصيب العقلى ، تعطى الجديد المبتكر من الأساليب لحفظ قيمة الفكرة ، وبهذا تفرغ احتقانات العقول والنفوس بأساليب راقية وهادئة ، بما يضمن استمرارية العمل.

كما أن للحركة الفكرية طبيعتها فى التكوين ، والنمو ، ... ، إنها تتحرك وفق مبدأ التراكم المعرفى ، أو تراكم الخبرة المعرفية ، وتلاقح الآراء ، واعادة تركيب المعطيات الفكرية ... ذلك أنه لا توجد فكرة إنسانية جاءت ناضجة متكاملة مرة واحدة إلى واقعنا ، إن الفكرة الإنسانية كالطفل ينمو رويدا رويداً إلى أن يصل إلى مرحلة النضج والاكتمال .. ومن ثم كان الجهل بطبيعة الحركة الفكرية ، هى أساس الفرقة والشقاق ، كما أن التأثر بفكرة معينة يؤدى إلى جمود العقل وركوده ، فلا يقبل فكرة جديدة ، وكان الأولى به أن يكلف نفسه عناء البحث ، والنقد ، والتهذيب ، لكنه رفض ذلك وألف القديم البالى ، فكانت محصلته العلمية صفراً ، والنتيجة : اختلاف وتمزق فى جسد الأمة ، وسببه : ضمور الفكر وعدم المعرفة بطبيعته.

طبيعة فقه الخلاف :

عن جندب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه فقوموا » [2] ، وروى عن عبدالله ابن عمر - رضى الله عنه - قال : « لقد جلست أنا وأخى مجلسا ما أحب أن لى به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخى ، فإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا عجرة [3] ، إذ ذكروا آية

١- سورة الكهف من الآية رقم (٢٩).
٢- رواه البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائى (الجامع الصغير - السيوطى ، ص ٤٧).
٣- أى : مهمومين ، محزونين ، ومنه قول على - كرم الله وجهه - « إلى الله أشكو عجرى وبجرى»: أى همومى وأحزانى.

من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا قد أحمر وجهه ، يرميهم بالتراب ، ويقول : مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » [1].

توجيه تربوى من نبى معصوم ، فيه سيطر على ظاهرة الخلاف بين الصحابة ... إنه ﷺ لم يرجع فكرة على فكرة ، ولم يقل هذا صواب ، وذاك خطأ ، إنه لم ينظر إلى ذلك البتة ، كما لم يسألهم عن القضية التى اختلفوا فيها ... لكنه ﷺ وضع لهم قاعدة تربوية تطفئ نار الفتنة والشقاق ، وهى : الجلوس حين الاتفاق ، فإذا ما أتى الخلاف ولم يكن هناك من يؤلف بينهم ، فإن القيام أولى ، والانشغال بغيره أفضل ... ذلك أن من قضايا الخلاف ما لا يعلم به أحد إلا الله - عز وجل - حينئذ يجب رد الحكم إلي من أنزل الكتاب ، بهذا وضع النبى ﷺ حدا للخلاف ، منه تبين لنا أن الخلاف نوعان :

١- الخلاف المحمود :

هو ذلك الخلاف المثمر الجاد ، الذى يبحث فى جانب المسألة ، ويتفحص زواياها المختلفة ، ويوازن بين الأدلة ودلالتها ، لكى يخرج برأى ، أو نظرية ، تزيد الآخرين قربا من تفهم القضية محل النظر ، وتزيدهم تبصرا بجوانب الموقف المرتبط بها ، دون سيطرة ودحض للرأى الآخر ... إنه خلاف بناء مكمل للغير ، هدفه التوصل لما هو مجهول ، الداعى له : وحدة الأمة المسلمة ، والعمل على نبذ الفرقة والشقاق من بين جنباتها.

١- رواه أحمد

٢- الخلاف المذموم :

هو ذلك الخلاف التفريقى القائم على رأى اجتهادى مختلف فيه ، تعدى فيه صاحبه نطاق الفكر النظرى ، وألبسه لباس العمل الحركى ، ملزما غيره إتباعه وطاعته ، مستهدفا نقص غيره وتعجيزه .... الداعى له : كراهية ظهور الحق على يد غيره ، لا تقوية الحق وإعلاؤه ، وفى ذلك خطر عظيم على وحدة الأمة المسلمة.

وعلى ذلك فإن كل نص قرآنى أو نبوى أتى محذراً من الخلاف ، وناعيا على المختلفين إنما يعنى هذا النوع من الخلاف (الخلاف المذموم) لا النوع الأول ، لما يترتب عليه من النزاع ، والشقاق ، وعدم الألفة والتوحد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين »[١] ، ويقول سبحانه : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم »[٢] ، ويقول أيضا : « وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون »[٣] .

إن أهل هذا النوع من الخلاف مرضى يجدون متعة فى قضايا الخلاف ، ليثوروا ويفوروا ، وظاهر أمرهم الغضب للدين ، وهم فى الحقيقة أنفسهم معتلة، وتربيتهم ناقصة .. «إن الشخص[٤] الذى قال لرسول الله ﷺ اعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! إنه - والله - ما يغار على عدالة ، ولا يأبى على جور ، إنه طالب ظهور عن طريق الغيرة على القيم ، يريد أن يقال عنه : لفت معلم الإنسانية إلى ما فاته ، وأدرك مالم يدركه ، وهو صاحب الرسالة العظمى».

١- سورة الأنفال من الآية رقم (٤٦).

٢- سورة آل عمران الآية رقم (١٠٥).

٣- سورة الروم من الآيتين (٣١ ، ٣٢).

٤- ذو الخويصرة (رجل من بنى تميم).

إنه هو وأمثاله كما قال رب العالمين : « إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه» [1].

ولقد تألم رسول الله ﷺ لهذا الكلام ، وقال لصاحبه : «ويحك من يعدل إذا لم أعدل ؟ خبت وخسرت إن لم أعدل » [2].

أجل إن هؤلاء قد نسوا وحدة المسلمين وقوتهم ، واسترداد ما سلب منهم ، ولم ينسوا الخلاف على الجهر بالبسملة « أول الفاتحة ».

أقول : لحساب من تستثار المشاعر وراء رأى فقهى ، صاحبه مأجور ، وماذا يبقى من مشاعر الناس بإزاء العقائد الأولى ، والوحدة الجامعة ، والتماسك فى وجه الأعداء.

إن التعصب لرأى أحد الفقهاء غباء ، فللمسلم حق العمل ، وحق الترك والعمل بغيره ، وليس لأحد من المسلمين حق الاعتراض عليه ... إنها مسألة ثانوية ، والتعصب لها يتم على حساب الدماء ، والأموال ، والأعراض ، وكرامة الأمة وحياتها.

هذا هو العقل الجامد ، والفكر الهابط « ذلك مبلغهم من العلم » [3] لقد عموا عن العظائم ، ولا يرون إلا ما يضخمون من وجهات نظر ، قد يكون خطؤها أجلى من صوابها. ومن الغريب المبكى أن ظهرت جماعة يتسمون أهل الحديث ، مواجهة لجماعة القرآنيين ، يفهم أحدهم فى الخبر المروى فهما معينا ، فإذا ما خالفته فيه اتهمك بأنك تخالف السنة ، أو تخاصم النبى المعصوم ﷺ وهذا بلاء وجهد عظيم، ولو أمعن أحدهم بفكره فيما يحكم فيه ما نطق بذلك ، يقول الامام

١- سورة غافر من الآية رقم (٥٦).

٢- دستور الوحدة الثقافية ، الشيخ الغزالى ، ص ١٠١ ، ١٠٢. والحديث أخرجه البخارى ومسلم (الجامع الكبير - رقم ٣٠٠ - ٢٤٢١٠).

٣- سورة النجم من الآية رقم (٣٠).

ابن تيمية - رضى الله عنه - روى فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال لأصحابه عام الخندق «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدركتهم صلاة العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى إلا فى بنى قريظة ، وقال بعضهم : لم يرد منا هذا ... وصلوا فى الطريق ... فلم يعب الرسول ﷺ - لما بلغه الخلاف- واحدة من الطائفتين » .

قال ابن تيمية يشرح فقه القضية : الأولون تمسكوا بعموم الخطاب فجعلوا صورة القرائن داخلة فى العموم - يعنى أنهم رأوا إضاعة وقت العصر من مفهوم النص النبوى -.

والآخرون : كان معهم من الدليل ما يوجب خروج هذه الصورة عن العموم -إذ المقصود المبادرة إلى اللحاق باليهود قبل أن يتهيؤا للقتال -.

وهى مسألة اختلف فيها الفقهاء اختلافا مشهورا : هل يخص العموم بالقياس - أم لا - ؟

قال ابن تيمية : ومع هذا فالذين صلوا فى الطريق كانوا أصوب فعلا ... !! هكذا قال كبير علماء السلف فى العصور الأخيرة. (١)

هذا وليس لنا أن نرجح رأيا على رأى فالرسول ﷺ لم يفعل ذلك ، بل يعنينا التأدب والتفقه خاصة الذين يخاصون فى مثل هذه القضايا وأشباهها ، ثم ليختلفوا نظريا ما شاؤا ... أما أن يتهجم نفر من الطلاب ، أو بعض العاطلين على هؤلاء الأئمة الكبار ، وينالوا من قيمهم الدينية والعلمية ، فهذا سفه وغرور.

١- انظر دستور الوحدة الثقافية ، الغزالى ، ص ١١١.

التعددية المذهبية للفقه الإسلامى :

المسلمون متفقون على أن القرآن الكريم ، وسنة النبى الخاتم ﷺ هما مصدر التشريع الإسلامى بين الأمة ، وأنهما المرجع الأوثق لطالب الحق ، وليس بعدهما مجال لاقتراح ، أو مسلك.

وإذا كان الأمر كذلك فما هذه المذاهب التى تمسك بها الناس ، وتفرقت على الأمة الإسلامية.

نعم إن كلمة مذهب لا تعنى إلا وجهة نظر فقيه ما فى فهم النص القرآنى ، أو النص النبوى. ووجهة النظر هذه لا تعنى العصمة ، ولا القداسة ، كما لا تعنى وجوب الالتزام بها .. إنها فكرة بشرية فى فهم الوحى الإلهى ، فالالتزام بالوحى، والكرامة فى الإنتماء إليه ، لذلك كانت هناك حقائق شرعية استوى فيها الخاصة والعامة فى دركها لا يختلف فيها أحد من البشر ، وذلك كأصول العقيدة ، والأخلاق ، والعبادات ، والمعاملات.

هذه الأصول كفيلة لاستقامة الإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لكن الحياة - كما هو معلوم - متقلبة ومتغايرة ، وهى قابلة لكل النتائج المترتبة على السلوك الفردى أو الجماعى ، فهناك أيام السلام والقتال ، وهى أيام حافلة بالمتناقضات داخل المجتمعات الإنسانية ، وبتعبير أدق : أيام معقدة شديدة ، تحتاج إلى عقل واع مدرك لحقائق الأحكام ، يستطيع أن يتعامل معها من خلال الأصول الثابتة ، وهنا لابد من انتظار رأى الخاصة ، والإفادة من خبرتهم.

وفى ذلك يقول الله تعالى ناعيا على بعض القاصرين : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » [1] ، ويقول سبحانه منوها بمكانة أهل التخصص من

١- سورة النساء من الآية رقم (٨٣).

العلماء وضرورة الرجوع إليهم : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[1].

وأهل الذكر ، وأهل الاستنباط ، هم رجال توافرت لهم الامكانات العلمية التى جعلتهم محلا للثقة ، لقد استفادوا على مر الزمان والمكان ، فلا تحكير ولا استغلال ... ومن ثم فمن راقة أن يتبع وجهة نظر لأحد هؤلاء الرجال ، أو أن يمشى وراءه باستمرار فله ذلك ، ولا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها ..

فالخلاف كائن وهو أمر ضرورى ورحمة ، ويجب أن يفتخر به ، وإلا لصارت أمور الدين وقضاياه جامدة مغلقة ، غير معلنة لحكم فى قضية مستحدثة ... والمتأمل فى الخلاف الفقهى يجد أنه اختلاف مثمر بناء وسيكون إلى يوم القيامة، ويجب ألا نتطير منه ، وألا نحاول قتله أو تجاهله ... ذلك لأنه يغنى الثورة الفقهية للأمة ، ويتيح إمكانية أكبر للوقوف على أقصى أبعاد المسألة العلمية ، ومختلف الدلالات التى يمكن استخلاصها من أدلتها ... وهذا واضح ومعلوم من خلال كتب الفقه المقارن ، فمسائله معلومة ، وكادت أن تكون متواترة على ألسنة طلاب العلم ، وهذا ما يسمى بالخلاف النظرى.

أما على مستوى الواقع العملى ، فإن موقفا فقهيا واحدا لابد أن يسود الواقع إذا لم يكن بد أن يسود رأى واحد ، أما إذا كان الواقع الحركى ذاته يتسع لتعددية المواقف السلوكية بآرائها الفقهية ، دون أن يؤثر ذلك على وحدة الأمة ، أو يهدد صفها ، فلا بأس بذلك ، وهو كثير فى أبواب العبادات ، وأحكام الطهارة والصلاة.

أما إذا كان الواقع الحركى - لا الفكرى - لا يتسع إلا لموقف فكرى إجتهادى واحد ، فلابد من سيادة أحد المواقف الفكرية والفقهية على باقى المواقف الأخرى واقعيا ، ولا يجوز منازعة الآخرين ، من ذوي الرأى الاجتهادى المخالف لذلك السلوك ، الحافظ للأمة وحدتها ورشدها.

١- سورة النحل من الآية رقم (٤٣).

فإذا كانت بعض المذاهب ترى قتل تارك (الصلاة) ويرى غيرهم أن يعزر ويحبس دون القتل ، وما يترتب على هذا الخلاف من خلافات أخرى ، كأن يقتل ردة أم حداً ؟ ويورث أم لا يورث ؟ ونحو ذلك من الخلافات المذهبية حول الدية وأحكامها الفرعية ، والقصاص والخلاف فيه ... وغير ذلك الكثير من الاجتهادات الفقهية التى يعرفها الفكر العلمى الإسلامى ، والتى لا يحتمل الواقع الحركى معها إلا الحسم بموقف واحد ، وإلا تهددت وحدة الأمة ..

كل هذه الأمور وما يكون على شاكلتها ، الخلاف فيها يبقى مفتوحا خصبا ، مادام فى صعيد الموقف الفكرى النظرى ، أما إذا تعدى الأمر إلى حاجة تشريعية ملحة تضبط الموقف العملى السلوكى ، فالأمة ملزمة برأى واحد ، وعلى الآخرين واجب الطاعة عمليا مع حقهم بالاحتفاظ باجتهادهم وخلافهم فى المسألة (نظريا). وتبقى إرادة الجماعة المسلمة (الأمة المسلمة) واحدة ، وصفها الحركى واحدا ، وآراؤها الفكرية والفقهية متعددة.

هذه حقيقة شرعية ، وواقع تاريخى غير منكور ، من لا يعرفها فهو لا يعرف عن واقعه شيئا ، فضلا عن عدم معرفته بمقاصد دينه ، ومن لا يدركها فلن يدرك شيئا من مقومات العمل الإسلامى المعاصر.

إن عامة الشقاقات ، والخصومات ، والاختلافات التى أصابت الحركة الإسلامية المعاصرة ، كان مردها إلى الجهل بهذه الحقيقة الشرعية ، والواقع التاريخى ، وإن الكثير من العاملين فى حقل الدعوة ، والقائمين بأمرها ، يرون أن أية حركة إسلامية ، لا ينبغى لها أن تشهد عدة آراء أو إجتهادات مختلفة أو متباينة ، أو متناقضة بين رجالاتها ، كما لا يجوز لأحد أن يقول برأى يختلف عن رأى الحركة ، بل يجب عليه الانضمام فكريا وسلوكيا (حركة) للعمل الحركى الإسلامى .

وقد اتبع هذا المنهج فى برامج التعليم الداخلية ، والتى يطلق عليها (مناهج التربية) التزم القائمون بهذه المناهج تدريس مذاهب فقهية ، وآراء علمية محددة، محرمين على العاملين دراسة أى مذهب ، أو رأى يخالف ما تضمنته مناهج التربية ... وإذا اكتشفت الحركة الإسلامية هذه أن ثمة من رجالها يقوم بتدريس آراء أخرى ، كان جرما فادحا ، وخرقا عظيماً ، ذلك أن مهمة القائم بأمر هذه المنظمة أو الجماعة ... المحافظة على الوحدة الفكرية للحركة ، كمحافظته - تماماً - على الوحدة التنظيمية ، وهذا خطر عظيم ، ومسلك فاسد، أساء إلى العاملين فى حقل الدعوة ، وأنزلهم منازل المخادعين ، وجعل منهم دعاة أهداف ومطامع فى نظر الأمة ، وهذه طامة كبرى.

إن مهمة القيادة ليست فى إلغاء فكر ، أو مصادرة خلاف ، وإنما مهمتها تنشيط هذه الاجتهادات العلمية ، وتنظيمها ، والإفادة من عطاءاتها العلمية والفكرية ، إضافة إلى الدور الذى تقوم به القيادة ، وهو حسم العمل الحركى الذى تقوم به ، وفق رأى علمى واحد ، وجمع الأمة على كلمة سواء ، مع حقهم الأصيل فى الخلاف النظرى حسب اجتهاداتهم العلمية.

لقد عمل الرسول ﷺ باجتهادات الصحابة فى كثير من المواقف وأقرها ، وهذا معلوم فى غزوة بدر ، وصلح الحديبية وغيرهما ، والمتتبع لعهد الخلافة الراشدة يشهد الكثير من الخلافات الفكرية ، والفقهية العديدة بين الصحابة الكرام ، ولقد عدت اختلافاتهم هذه مصدراً من مصادر التشريع الإسلامى وهو المعروف (بمذهب الصحابى) ، وما علمنا أن خليفة من الخلفاء الراشدين قام بمصادرة فكر أو إجتهاد ، ومن ثم فنحن الآن فى أشد الاحتياج إلى إعادة النظر فى فقه الخلاف ، لأن الجهالة له مهلكة ، وسوء الفهم مدمر ، ولنا فى الرسول الخاتم ﷺ وصحابته الأسوة الحسنة ، كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى : « لقد كان

لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»[1] . وقال سبحانه : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »[2].

الخلاف فى واقعنا المعاصر :

إن الحركة الإسلامية اليوم تواجه واقعا مهموما ، والسبب : الفرقة ، والتخلف . أما الفرقة : فشواهدها معلومة فى شتى جوانب الحياة ، ومن لا يقر بذلك فهو مخادع ، فلو نظرنا إلى البناء الإجتماعى - كمثال - لوجدنا أنماطا متعددة من السلوك ، وقواعد التشريع والسياسات ، والإقتصاديات وغيرها ، ففى الجانب المذهبى ، نرى التحديات المواجهة للعمل الإسلامى قد قامت على التعصب المميت ، المولد للخلافات العدائية بين الأمة الواحدة ، فلقد تولدت الفرق الاعتقادية ، وهى فرق أثارت مسائل تتعلق بالاعتقاد ، وهى فى واقعها فرق سياسية مزجت قوامها بمسائل إعتقادية ، وذلك كالمرجئة ، وهى فرقة تخلط السياسة بالدين ، وهى تقابل فى إعتقادها - الخوارج - فالخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة ، ويعدونه مخلداً فى النار.

أما هؤلاء المرجئة فإنهم قالوا : بأنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. ولقد كان المعتزلة يطلقون على كل من لا يحكم بأن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ، ولذا قيل عن أبى حنيفة بأنه مرجئ ، ولقد قال الشهرستانى : إن المرجئة قسمان : مرجئة السنة ، وهم الذين يقولون أن المعاصى تستحق العقاب ، وأن الله - تعالى - قد قرر فى كتابه ، وعلى لسان نبيه أنه معذبهم يوم القيامة ، ولكن قد يغفر لهم ويتوب عليهم. والقسم الثانى : مرجئة البدعة وهم الذين يقولون بأنه لا عقاب على ذلك ما دام قد صح الاعتقاد ، كما أنه لا مثوبة على خير إذا لم يصح الاعتقاد.

١- سورة الأحزاب الآية رقم (٢١).
٢- سورة الأنعام من الآية (٩٠).

ومن هذه الفرق الاعتقادية - الجبرية أو الجهمية - وهم الذين يقولون بأن الإنسان ليست له إرادة فيما يفعل ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل لكل ما يجرى على يدى العبد ، خيرا كان أو شراً ، وإنه فى أفعاله كالريشة فى مهب الريح.

ومن هذه الفرق - القدرية - وهم الذين يقولون بأن الإنسان يخلق أفعال الشر بغير إرادة الله تعالى ، وهو يفعل الخير بإرادة الله تعالى.

ومن بين هؤلاء الأخيرين - المعتزلة - وقد كان لهم شأن كبير فى الفكر الإسلامى ، إذ هم الذين كانوا يتولون الرد على الزنادقة ، وكان من أهم مبادئهم: وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نشراً للإسلام وهداية للضالين ، وكل امرئ بما يستطيع. قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » [1].

وفى مقابل هذا التفرق العقائدى ، نجد التفرق الفقهى ، فقد تكونت مذاهب الأمصار ، حيث ابتدأ الخلاف فى المدائن ، بتكون المدارس الفقهية ، فكان بالعراق مدرسة فقهية لها منهاج ، ثم بالحجاز ، ثم بالشام ، ثم كانت الشيعة ، ثم صار بعد ذلك فى كل مدرسة رجل بارز ، التف حوله تلاميذ أمدهم بالرواية ، والدراية الفقهية ، فكان بالكوفة شيخ القياس أبو حنيفة ، وبالمدينة مالك ، وكان بالشام شيخه الأوزاعى ، وبمصر الليث بن سعد ، ثم جاءت الطبقة الثانية ، فكان الشافعى ، وأحمد ، وداود ، وتتابع من بعدهم الإجتهاد ، ثم الإنحياز المذهبى ، فأصبح المجتهد يجتهد فى نطاق مذهبه ، ثم انتقل الإجتهاد إلى التقيد بآراء الامام ، ثم بعد ذلك إلى التقيد بآراء المجتهدين فى المذاهب ، ثم إلى الجمود ، والوقوف عند ما انتهى إليه السابقون ، إذ يقفون عندها لا يعدونها [2].

١- سورة آل عمران من الآية (١١٠).

٢- تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، جـ٢ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

ومن ثم ظهرت العصبية والفرقة بين الأمة نتيجة الجهل ، والتقليد الأعمى الموروث.

أما التخلف فى الأمة : فهو تخلف دينى وعقائدى فى المقام الأول ، هذا التخلف يرجع إلى أصلين كبيرين :

الأصل الأول : غياب التربية الأخلاقية السوية ، الأمر الذى أدى إلى ظهور جماعة متفرقة بين جنبات الأمة المسلمة أعطوا لأنفسهم أكثر مما يستحقون .. فمن حقهم - حسب منطقهم - أن يكون لهم دورهم الخاص ، ووضعهم الخاص، ومن ثم ذهبوا يبحثون عن (إطار فكرى) جديد يصوغونه بما يضفى المشروعية (الفكرية) على وجوده الحركى المتميز ، فأوجدوا مذهبية فكرية (جديدة) ترتب عليها فرقة على ساحة العمل نتيجة التصعيد النفسى الذاتى المتوالى للشعور بالأحقية والصدارة ... وبالتالى تزداد الفرقة وترسخ العصبية ، فإذا ما أخذت تبحث عن هذه الفكرة وأصلها التى أصبحت مذهبا له من يدافع عنه ، تراها فكرة واهية غذاها ووسع دائرتها ، ضعف السيطرة على الهوى ، وقلة التربية الخلقية الإسلامية ، إنهم يحسبون أنهم على شئ ...

قال تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » [1] وقال سبحانه : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » [2].

أما الأصل الثانى : الذى يرد إليه ظاهرة الفرقة والتنازع التى يشهدها العمل الإسلامى المعاصر، فهو غياب (فقه الخلاف) عن واقعنا الفكرى والحركى.

١- سورة المجادلة الآية رقم (١٩).

٢- سورة الجاثية الآيتان (٢٣ ، ٢٤).

وهذا ما أدى إلى تصادم الفكر ، وما يترتب عليه من عمل حركى ... والمتأمل فى مقاصد الأحكام التى حواها (فقه الخلاف) يتحقق مما يلى :

١- تهذيب الفرد ليكون مصدر خير لجماعته ، وذلك من خلال ما شرع له. فالعبادات - مثلا - مرماها تهذيب النفوس أولا ، وتوثيق العلاقات الإجتماعية ثانيا ... إنها تشفى النفوس من أدران الغل والحقد والحسد ، وتربى روح الائتلاف بين المؤمن وغيره ، فلا يكون ظلم ولا فحشاء . قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » [١] ، كما أنها بهيئتها عمل حركى منظم لا يطغى فيه وقت على وقت.

٢- إقامة العدل فى الجماعة المسلمة ، وهو يشمل العدل فيما بينها ، والعدل مع غيرها ، فلقد أوجب الاسلام تكريم الإنسان لذات الإنسان فنهى عن المثلة ولو فى الحرب ، وان مثل العدو بقتلانا ، ومن ثم صرح الله - تعالى - بالكرامة الإنسانية ، فقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » [٢].

وفى سبيل تحقيق العدالة الإجتماعية أوجب الإسلام تربية كل آحاد الأمة الإسلامية ليتمكنوا من العمل بمقدار مواهبهم وكفاياتهم.

ولقد قال بعض الفقهاء من المالكية في هذا ..... ، إنه يجب أن يكون التعليم على ثلاثة مراحل : في المرحلة الأولى يتعلم كل شباب الأمة ، فمن كان يستطيع بكفايته الفكرية التى كشفتها تلك المرحلة أن يدخل الثانية دخلها ، ومن وقفت كفايته العقلية عن الدخول فيها ، وقف عند فرض كفائى تحتاج إليه الجماعة. إذ الأمة فى حاجة إلى عمال يدويين ، وزراع يفلحون الأرض ، وعمال

١- سورة العنكبوت من الآية (٤٥).
٢- سورة الاسراء الآية (٧٠).

يقومون فى المصانع المختلفة .... التى لا تحتاج إلى فكر كبير ، ولكن تحتاج إلى أيد ماهرة.

والذين دخلوا المرحلة الثانية واجتازوها بنبوغ ، يدخلون المرحلة العليا ، وهى الثالثة ، ومن وقف دون الدخول فى هذه الأخيرة ، وقف عند فرض كفائى ، فإن الجماعة محتاجة إلى ذوى ثقافات متوسطة ، ليشرفوا على الأعمال ، ويديروا نظامها ... ومن اجتازوا المرحلة العليا كان منهم قادة الفكر ، والمخترعون ، وبمقدار قواهم الفكرية ، لا بمقدار عددهم تكون قوة الأمة ، وعظمتها المادية والروحية ، فالاعتبار فى هؤلاء بقواهم ، لا بالأعداد الكثيرة . (١)

بهذا حدد الفقهاء مكانة كل فرد داخل المجتمع الإسلامى ، وحدد له العمل المكلف به فى الدنيا والمحاسب عليه فى الآخرة ، كما أن العلم لا يوضع إلا فى موضعه ، وإلا ظلمته ، فلا تكليف إلا بوسع ... ولو علم كل مخلوق هذه الحقيقة ما ألزم غيره باتباعه قهراً ... كيف يكون ذلك والله قد قال : « لا إكراه فى الدين» (٢).

ومن ثم فعلى القائمين بأمر الدعوة مراعاة ذلك كى لا يختلف الناس من حولهم ، وتتسع الفجوة ، وذلك من خلال توحد الكلمة بين العلماء ، ووقف كل دخيل عليهم والصد له ، والأخذ على يده ، وإلا جاء التفرق والاختلاف الذى هو نذير هلاكها ، قال تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » (٣).

ولقد نبهنا النبى المعصوم ﷺ إلى هذا الاختلاف بين الأمة ، وقد ذكر ذلك

١- تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، جـ٢ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .
٢- سورة البقرة من الآية (٢٥٦).
٣- سورة الأنعام الآية رقم (٦٥).

الحافظ ابن كثير فى تفسيره بضعة عشر حديثا ، من الصحاح ، والسنن ، والمسانيد ، تحذر الأمة من أن هلاكها سيكون من الصنف الثالث (يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) ، ومن أراد بيان ذلك فليرجع إلى تفسير ابن كثير -سورة الأنعام- فقد بين ذلك بوضوح. ويكفينا فى ذلك قول الله تعالى : «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين »[1] ، والمتأمل فى هذا النص الالهى يلاحظ أن التنازع لا يحمل على معنى الإختلاف فى الرأى، وتباين المواقف ، لكنه يحمل - قطعا - على النهى عن تنزيل (الخلاف النظرى) على (الواقع الحركى) بما يؤدى إلى تشققه وتصدعه ، وهو الذى رتب عليه النص الفشل وذهاب الريح ...

وعلى القائمين بأمر الدين أن يعلموا بأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ومما لاشك فيه أن الاختلاف فى العمل الحركى للدعوة هو عين الافساد والمطلوب حينئذ هو الالتزام بهذه النصيحة لمن لا يعتمد رأيه ، ولم يؤخذ باجتهاده: (واصبروا) وحسبنا فى ذلك قول الله تعالى : « واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا »[2]. فرفع الفرقة ، والعمل على وحدة الأمة ... هما النعمة الأولى بعد نعمة الإسلام.

العلاج :

ويتمثل فى توحيد العمل الحركى للدعاة : وتحققه فيمايلى :

١- تربية الدعاة على التجرد لقضايا الإسلام العامة :

إن العمل الحركى للدعاة ، وسيلة ، ومنهج لتحقيق أهداف الرسالة الخاتمة ، وانطلاقا من القاعدة الأصولية : « مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب » يحتم وجوب العمل المنظم كى لا يستهلك القوى البشرية فيما لا واجب فيه.

١- سورة الأنفال من الآية رقم (٤٦).

٢- سورة آل عمران من الآية رقم (١٠٣).

هذه الحقيقة لا تحتاج إلى إعادة التكرار ، لكن قد تتجاذبها وسائل فتصير الحقيقة باهتة ، وتصبح الوسيلة هدفا ، والواجب يتراجع ، ويفقد جاذبيته الضابطة لحركة المسلمين ... وهكذا ، يصبح الإنتصار لفرد أو مذهب ، دون الانتصار لمفاهيم الإسلام العالية ، النابعة من الكتاب والسنة ، لا نابعة من فرد أو مذهب .... بذلك صار التقديس والولاء للأفراد والمذاهب دون الإسلام بواقعيته وشموله ... وهنا تأتى المغالبة ، والتمزق فى صفوف الدعاة ، خاصة فيما يتعلق بالمنهج (الحركى) لا النظرى (الفكرى).

إن المنهج التربوى للحركة الإسلامية ينبغى أن يقوم على شد انتباه العاملين فى حقل الدعوة (الدعاة) ، وشحذ همتهم ، وتوجيه طاقاتهم ، وتحريك فاعليتهم نحو قضايا الإسلام الرئيسية والعامة - داخل المجتمعات الإسلامية - ، وأهداف الرسالة العالمية ، بحيث يكون العمل ، وتكون المواجهة البناءة من خلال وحدة العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية ، هناك الفساد ، والطغيان ، والاستكبار العلمى ، والصهيونية ، والصليبية الجديدة ، والماسونية بفصائلها المتعددة ، والشيوعية الساقطة ، هو وحده العمل الذى يجب أن يتفهمه العاملون لوحدة الصف الإسلامى ، كى لا تبدد الطاقات ...

هذا ولا يخفى على العاملين (الدعاة) أن هناك الحطام البشرى الكثيف ، والحائر ، والمشتت ، والذى تعج به بلاد المسلمين - اليوم - فساحات العمل والدعوة تتسع بالملايين البشرية. فلماذا تتزاحم على المساحات الضيقة ، وتستهلك فيها الجهد والطاقة ، فى حين أن الساحة الحقيقية هى الواقع ، والواقع شاسع وواسع الأطراف ، ومن ثم تحقق الوجوب بالدخول فيه.

إن من السفة أن تشتغل عقول الدعاة بما لا فائدة منه ، ومواجهة بعضهم بالخلافات التى ينشأ على أثرها جيل لا يعرف إلا الخلاف والشقاق ، وتغفل الهدف الأكبر الذى أرسل من أجله الرسول الخاتم ﷺ وفضلت من خلاله الأمة

-الخاتمة- « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[1] ... لقد تقدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عن الإيمان بالله لأنه أصل للإيمان بالله ، كما أنه أصل فى توحيد الكلمة الموحدة للأمة ... بذلك توقف الصراعات بين العاملين فى حقل الدعوة.

٢- وضع برنامج عمل ينطلق منه الدعاة :

الإسلام يرفض العشوائية ، والعمل الهمجى ، ومن ثم فمن استوى يوماه فهو مغبون ، إن الفلاح البسيط نظم حياته منذ الصغر ، وعرف مواعيد زراعة المحاصيل ، وطرق زراعتها. ومن عمله الدائب إكتسب طرق شتى لزراعة المحصول الواحد ... وكذلك القارئ المثقف الذى لم يسترح عند نومه إذا لم يقرأ شيئا جديداً يخدم دوره فى الحياة ... سيجد نفسه أسرع إلى الملل والضجر من القراءة ، وأقرب إلى الهرب منها إلى غيرها ... وكذلك بالنسبة لأصحاب الأعمال وغيرهم .

هذه ظاهرة إنسانية ، ترتبط ارتباطا وثيقا بخصوصيات نفسية وموضوعية فى التكوين الإنسانى ، وهى ظاهرة نستشعرها جميعا بحكم الفطرة المشتركة ، ومن ثم نهى صادقة تماما فى تأثيرها على السلوك الفكرى.

فإذا كان الداعى لا يملك منهجا واضحا يرتبط عمله الحركى به ، ورؤية فكرية مضبوطة ، فسوف يكون أكثر عرضه للتخبط والتيه ، والتوظيف الخاطئ للطاقات ... وبالتالى ينشغل بالتفاهات ونقده للغير والتصدى لهم ، وهذا عبث وبعد عن المنهج السامى ... بل قد يزداد فى ذلك إذا وجد بطانة خاوية تصفق حوله ، فينتعش ويزهو مصدقا أنه على حق ... والحق أن الحق منه بعيد ... بيد أنه لو انشغل بما يجرى حوله من تقدم لاستحقر نفسه ، وعلم أنه لم يخطو من

١- سورة آل عمران من الآية رقم (١١٠).

مكانة خطوة ، والسبب فقدانه برنامج العمل الحركى ، وتحديد دوره فى الحياة ، ليدفع بمسيرة الإسلام إلى الإمام.

والأدهى أن الدعاة لم يعتبروا من واقعهم المرير القائم على السلوك الركيك الذى أفقدهم الثقة بأنفسهم نتيجة عدم التغيير والتجديد ، ويعد الناس من حولهم لحفظهم ما يقولونه ويرددونه ، صباح مساء ، وفى كل مناسبة .

إن تحديد المنهج ضرورة أولية - عامة - لأى نشاط إسلامى جاد ، ثم هو ضرورة خاصة لاحتواء أحد أسباب الخلاف والشقاق الأساسية.

٣- تنشيط أدب الإختلاف :

ينبغى على الدعاة أن يعرفوا جيداً ، أن الإسلام قد حوى الفضائل الأخلاقية، التى يجب أن تكون معالم فى طريق الحركة الإسلامية ، والسلوك الإنسانى المستنير ... والمتأمل فى أدب الإختلاف يجد هذا القول مردداً على كل لسان : « الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية » حقا وإلا جمد العقل ... إنه ثورة تخصب العقل المسلم ، وتكسبه قدرة على مواجهة ماهو جديد ... ومن ثم فنحن فى أمس الحاجة إلى إحياء آداب سلفنا الصالح فى هذه النزعة ، بحيث لا نتوقف عند إحياء تراثهم العلمى ، واختلافهم فيه ، ليمسك كل واحد منا بطرف منه ، فينعكس فساداً فى الواقع الحركى - كما هو حادث اليوم - ، بينما كان الأمر عندهم - وهم أصحابه - مجرد خلاف إجتهادى ، يحترم كل طرف فيه إجتهاد الطرف الآخر ، وذلك لأنهم كانوا يمتلكون التربية الخلقية الإسلامية ، وصدق الله العظيم حيث قال : « وإنك لعلى خلق عظيم » [١].

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » [٢] ، وامتثال العلماء لهذا

١- سورة القلم الآية رقم (٤).

٢- رواه البخارى فى الأدب ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة (الجامع الصغير - السيوطى ، ص ٩٢).

الأدب والسلوك الأخلاقى فى واقعهم العملى درء لجميع المفاسد الخلقية المنفرة ، وتمسك بهدى القرآن وسنة النبى ﷺ .

٤- الاهتمام بالنقد الإيجابى البناء :

إن الاهتمام بالنقد البناء وتنميته يسد الطريق أمام الفوضويين من أصحاب الفكر ، الذين يحترفون النقد والقدح فى مجهودات الغير ، ويوقظ الدعاة ويطالبهم بالبدائل التى قد تكون سببا فى أن يهتدى ذوى النيات الخيرة من هؤلاء الفوضويين ، بتنشيط مخيلتهم النظرية ، وتوجيهها إلى الواقع ، وفى ذلك إضافة عناصر جديدة تعطى قوة للعمل الإسلامى بعد أن كانت عناصر سلب وهدم، وشقاق.

هذا بالإضافة إلى ترشيد الاتجاهات المثالية فى التفكير بين الأفراد ، حيث يكون النزول إلى أرض الواقع ، ووضع الحلول للمشكلات ، وبالتالى تصبح نشاطات العمل الإسلامى أكثر قربا من الواقع ، والعمل الجدى ، وأبعد عن صراع الفروضات النظرية التى ليس لها واقع . ومن ثم تفهم الأعذار التى يمكن أن تدفع البعض لما يقومون به من مبادرات حركية يثبت خطؤها فيمابعد .

٥- الاهتمام بدراسة طبيعة المبتدع :

إذا كان من مصلحة المجتمع أن يعالج مرضاه الإجتماعيين ، فمن مصلحة الدعاة أن يدرسوا طبيعة البدعة والمبتدع ، كى لا يتسع الخرق وتصير البدعة بعد ذلك سنة ، وينشأ الاختلاف والتنازع والشقاق ، ويفقد العمل الحركى أهم مقوماته.

وواجب الدعاة - قبل كل شئ - أن يكونوا مؤهلين لمواجهة هذه الوقائع من خلال استجماعهم الأصول الدينية ، كى يواجهوا هذه الوقائع الجديدة ، بفقه يجمع بين الدين والواقع ...

ومن هذا يجب الاهتمام بدراسة طبيعة المبتدع ، وكل منحرف عن جادة الدين ، فيدرس متأملا مستنبطا حتى يفهم ، ويفهم حتى يعامل بحكمة وتعقل . فلقد ثبت أن الانتقام من المنحرف فكريا ، ومصادرة رأيه بلا دليل ، يصنع منه عدوا للعمل الإسلامى ... والفرد الكبير يصبح لديه جهاز من العادات ، والعواطف ، والسمات الشخصية ، فهو من الصلابة بحيث يعسر تغيير شخصيته ، وانعدام المرونة كثيرا ما يولد اليأس ، كما أن انعدام المرونة لدى الشخص المعالج ، وتصلب أنماطه السلوكية أدى إلى اليأس لدى كل من يتصدى لإصلاحه وتهذيبه.

وعلى هذا يتعين على الدعاة معرفة طبيعة البدعة ، وهل تضاد سنة ثابتة، وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته أم لا ؟

« والبدع من أخطر ما يلقيه الشيطان في قلوب أصحابها ، إذ لا يتوبون منها ، ولا يحسون بخطرها بخلاف المعصية ، والشيطان فقيه فى الشر ، وأقوى القيد الذى يوثق به الأسرى الجهل وأوسطه فى القوة الهوى ، وأضعفه الغفلة ، وما دام درع الإيمان على المؤمن فإن نبل العدو لا يقع فى مقتل. [1]

ومن ثم فإن عمل الشيطان التخليط الذى لا يميزه إلا الفقيه ، وبالتالى كان أول عمله تزهيد الناس فى العلم ، ليضمن الفرقة والشقاق بين المسلمين ، فيشل العمل الحركى للدعاة نتيجة الخلط وعدم التفريق بين دفع الضرر ، وتغيير المنكر[2]. والقاعدة فى الإسلام أن ما لا نص فيه بخصوصه ، يستنبط أولوا الأمر من العلماء حكمه من النصوص ، والقواعد العامة فى دفع المفاسد حفظ المصالح[3].

١- تلبيس ابليس ، ابن الجوزى ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
٢- تفسير القرطبى جـ ٦ ، ص ١٥٠.
٣- تفسير المنار ، جـ٦ ، ص ٣٦٢.

٦- مجانبة الهوى والعمل على إستقامة الظاهر والباطن :

ذكر صاحب الاحياء ، أن الحسن البصرى قال : بلغنا أن ابليس قال : سولت لأمة محمد المعاصى فقصموا ظهرى بالاستغفار ، فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرن الله منها وهى الأهواء [١] . والنواة بالتربية تصبح نخلة. وكل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح ، وكل فعل يجرى على الجوارح فإنه يرتفع منه أثر إلى القلب. وعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك جيداً ويوقنوا أنهم أسوة وأن هناك من يتبعهم ... وليكن سلوكهم الظاهرى لا يخالف السلوك الباطنى ، وإلا ستظهر نواة النفاق التى تفقد العمل الحركى الكثير ... المؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والعبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار. قال الشاعر :

أرى رجـــالا بأدنى الدين قد قنعوا

وما أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما

استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ومن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا ، فلا يبالى الله فى أى واد أهلكه .. وليس هذا تزهيدا فى الدنيا ، فيتركونها لغيرهم ، ولكن أن يؤخذ منها الحلال وأن يوضع فى موضعه ، فنبى الله سليمان عليه السلام ، كان ملكا ، وقال الله فيه : « نعم العبد إنه أواب » [٢]. وقال عن أيوب الذى أحاط به بلاء الدنيا : «إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » [٣] . وفيهما فقه كبير ... ملك ... ومبتلى وخاض فيهما من خاض من العلماء (أيهما أفضل) الغنى الشاكر أم

١- احياء علوم الدين ، الغزالى ، جـ ٣ ، ص ٣٤.

٢- سورة ص من الآية رقم (٣٠).

٣- سورة ص من الآية رقم (٤٤).

الفقير الصابر ... وكأن الدين قائم على هذا ولو فقهوا آيات القرآن لأدركوا الحقيقة واضحة من خلالها فى قوله « نعم العبد إنه أواب » ... فالكفتان متساويتان فى البداية.

والعلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا ، فتشربه الأشجار بعروقها ، فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة ، والحلو حلاوة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبرا ، والمتواضع تواضعا.

ومن ثم لزم الدعاة تفقد آفات الأعمال ، حتى لا يكن سعيهم ضائعاً ، فإن من لا يبالى أن تجرم من غير جناية ، ويعطى من غير وسيلة ، لا يبالى أن يعود ويسترجع ماوهب. ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ولابد من تقديم الأهم على المهم.

قال ابن مسعود : « فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب فيهون عليهم السفر بلا سبب ، ويبسط لهم فى الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه »[1].

ولكى يفقد الهوى مكانه ، ولا يوجد له أثر فى العمل الحركى الإسلامى ، يلزم الدعاة تقديم الأهم على المهم ، فالانشغال به - المهم - انشغال بالحق ، والحق داحض لما سواه ، وتقديم الأهم واجب ، وقد قيل : « إذا لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل» ولله در القائل :

لو صح منك الهوى ... أرشدت للحيل

فالهوى القائم بين قادة العمل الحركى هو الذى أحدث الشقاق والفرقة بين الأمة الإسلامية ، وقد نبهنا النبى ﷺ إلى ذلك فقال : « أخاف عليكم ذلة

١- احياء علوم الدين ، الغزالى ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧.

العالم ، والحاكم الجائر ، واتباع الهوى » [1] . قال تعالى: « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » [2].

وفى الخبر عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - : « إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق » [3].

٧- ترسيخ مبدأ الشورى وإحيائه بين القائمين بأمر الدعوة :

لقد جاء الإسلام مقررا لمبدأ الشورى فى قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » [4] ، وفى قوله سبحانه : « وشاورهم فى الأمر » [5] ، وفى ذلك دليل على اكتمال الشريعة الاسلامية وصالحيتها لكل زمان ومكان ، ورفعها للعمل الحركى الإسلامى ، والقائم على هذا المبدأ ، وحملهم على التفكير فى المسائل العامة والاهتمام بها ، والنظر إلى مستقبل الأمة نظرة جدية . وظاهر من ضيقة النصين المقررين لمبدأ الشورى أنهما عامان مرنان إلى آخر حدود العموم والمرونة ، بحيث لا يمكن أن يحتاج الأمر إلى تعديلهما أو تبديلهما فى المستقبل ... بذلك تميزت الشريعة الإسلامية بصفة الدوام ، وأنها لا تقبل التبديل والتعديل.

لهذه الإعتبارات اكتفت الشريعة الإسلامية بتقرير الشورى كمبدأ عام ، وتركت لأولياء الأمور فى الأمة الإسلامية أن يضعوا معظم القواعد اللازمة

١- اعلام الموقعين ، ابن القيم ، جـ٢ ، ص ٢٩٥.
٢- سورة الجاثية الآية رقم (٢٣).
٣- اعلام الموقعين ، ابن القيم ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧.
٤- سورة الشورى من الآية رقم (٣٨).
٥- سورة آل عمران من الآية (١٥٩).

لتنفيذه ، لأن هذه القواعد تختلف تبعا لاختلاف الأمكنة والجماعات والأوقات ، بشرط أن لا يكون فى ذلك كله ضرر ولا ضرار بصالح الأفراد أو الجماعة ، أو النظام العام.

فمن مبدأ الشورى يتوحد القرار ، وللأقلية التى لم يؤخذ برأيها المسارعة فى تنفيذ مبدأ الشورى استجابة لرأى الأغلبية باعتباره الرأى الواجب الاتباع ، وتدافع عنه كما تدافع عنه الأغلبية ، وليس للأقلية أن تناقش رأيا اجتاز دور المناقشة ، أو تشكك فى رأى وضع موضع التنفيذ ، وتلك هى سنة الرسول ﷺ التى سنها للناس والتى يجب على الناس اتباعها تنفيذا لقول الله تعالى : «وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » [1].

لقد سن الرسول ﷺ هذه السنة ، وعمل بها أصحابه بعد وفاته ... ففى غزوة أحد علم الرسول ﷺ باستعداد قريش وأنهم أقبلوا إلى المدينة ونزلوا قريبا من جبل أحد ، فجمع عليه الصلاة والسلام أصحابه واستشارهم أيخرج إليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأى عبدالله بن أبى وبعض الصحابة ، ولكن جماعة الصحابة أشاروا بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، فكان الرسول ﷺ أول من وضع رأى الأكثرية موضع التنفيذ ، إذ نهض من المجلس فدخل بيته ولبس لامته ، وخرج عليهم ليقود الأقلية والأكثرية إلى لقاء العدو خارج المدينة [2] ، وقد سارع الرسول بتنفيذ رأى الأغلبية بالرغم من مخالفته لرأيه الخاص الذى أظهرت الحوادث -فيما بعد - أنه كان الرأى الأحق بالاتباع.

١- سورة الحشر من الآية رقم (٧).

٢- انظر : التشريع الجنائى الإسلامى ، عبدالقادر عودة ، جـ١ ، ص ٣٨.

وقد عمل أصحاب الرسول ﷺ بهذه السنة بعد وفاته ، ففى حروب الردة التى حدثت فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - خير دليل على ذلك.

بذلك تظهر قيمة الشورى فى ضبط الخلاف ، وتنظيمه ، وتوظيفه بين الحركة الجماعية كنظام جماعى يضبط تباين الآراء ، ويحقق الموازنة بين تعدد الرأى ووحدة القرار ، كما يحقق مناخا من الطمأنينة والسكينة فى النفوس ، حيث يشعر كل فرد بأن حقه فى الخلاف محفوظ ، وأن دوره قائم يزيد من تماسك وحدة العمل فى الحركة الإسلامية وفاعليتها.

٨- الإهتمام بمبدأ الحرية وتقريره لتوحيد العمل الإسلامى :

لقد عنى الإسلام بمبدأ الحرية وقرره فى أروع مظاهره ... لقد قرر حرية التفكير ، وحرية الاعتقاد ، وحرية القول ، وبتحقيق هذا المبدأ وإعلانه يسمو العمل الإسلامى ، وتتوحد الحركة بعد ضغوط خارجية تتفجر حين المسير وتفقد الحركة الإسلامية توازنها ، وإليك بيانا موجزا عن هذه الحريات :

أ- حرية التفكير :

اهتم الإسلام بحرية التفكير بتحرير العقل من الأوهام والخرافات ، والتقاليد والعادات ، فلم يسمح للإنسان أن يؤمن بشئ إلا بعد أن يفكر فيه ويعقله ، ولا يقول مقالا أو يفعل فعلا إلا بعد أن يفكر فيما يقول ويفعل ويعقله.

ولقد قامت الدعوة الإسلامية نفسها على أساس العقل ، فها هو القرآن يعتمد فى إقناع الناس بالإسلام ، وحملهم على الإيمان بالله ورسوله وكتابه على استثارة التفكير وإيقاظ العقل ، ليصل من وراء ذلك إلى معرفة الحق من الباطل، قال تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » [1] ، وقال سبحانه : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، وإلى

١- سورة سبأ من الآية رقم (٤٦).

السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت»[1]، وقال : « وما يذكر إلا أولوا الألباب » [2].

ولقد نعى القرآن الكريم من ألغى عقله ، وعطل تفكيره ، وقلد غيره ، وآمن بالخرافات ، وتمسك بالعادات والتقاليد دون تفكير .... ووصف من كانوا على هذه الشاكلة بأنهم كالأنعام بل أضل ، قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم جثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » [3]. فللإنسان أن يفكر فيما شاء كما يشاء وهو آمن من التعرض للعقاب على هذا التفكير ، ولو فكر فى أعمال تخالف الشريعة ... والعلة أن الإسلام لا يعاقب الإنسان على أحاديث نفسه ، وإنما يؤاخذه على ما أتاه من قول أو فعل محرم ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تتكلم به أو تعمل به » [4].

ب- حرية الاعتقاد :

لقد كفل الإسلام حرية الاعتقاد ، وصانها إلى آخر الحدود ، وليس لأحد أن يحمل غيره على ترك عقيدته واعتناق غيرها ، ولتأكيد هذه الحرية اتخذ لحمايتها طريقتين :

أولاهما : إلزام الناس أن يحترموا حق الغير فى اعتقاد ما يشاء وفى تركه يعمل طبقا لعقيدته ، واقرأ هذه المعانى صريحة واضحة فى قول الله تعالى :

١- سورة الغاشية الآيات (١٧ - ٢٠).

٢- سورة آل عمران من الآية رقم (٧).

٣- سورة الأعراف الآية رقم (١٧٩).

٤- رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ، والطبرانى فى الكبير عن عمران بن حصين ، (الجامع الصغير ، السيوطى ، ص ٦٢ وصححه).

«لا إكراه فى الدين » [1] ، وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » [2].

ثانيهما : الزام صاحب العقيدة نفسه أن يعمل على حماية عقيدته ، وأن لا يقف موقفا سلبيا ، فإذا عجز عن حماية نفسه تحتم عليه أن يهاجر إلى بلد يحترم أهله العقيدة ، إذا كان قادراً على ذلك ، وإلا ارتكب إثما ، أما إذا كان عاجزا عن الهجرة ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ... وهاهو القرآن الكريم ينص على ذلك صراحة فى قوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » [3].

بذلك أعلن الإسلام قوته ومواجهته - لجميع العقائد - حينما قرر حريتها ، وأعطاها حق الأمان فى بلاده دون تخوف أو تهيب ... ولا يفعل ذلك إلا القوى.

جـ- حرية القول :

إذا كان الإسلام قد أعطى لكل إنسان حرية الاعتقاد ، فقد أعطاه حرية القول فيما يعتقده أنه الحق ، ويدافع بلسانه وقلمه عن عقيدة ، مع مراعات أن هذه الحرية - حرية القول - ليست مطلقة ، بل هى مقيدة بأن لا يكون ما يكتب أو يقال خارجا عن حدود الآداب العامة ، والأخلاق الفاضلة ، أو مخالفا لنصوص الشريعة ... وما قصد هذا إلا لحماية الأخلاق ، والآداب ، والنظام ، فإذا منع القائل من الخوض فيما يمس هذه الأشياء ، فقد منع من الاعتداء ، ولم يحرم من أى حق ، لأن الاعتداء لا يمكن أن يكون حقا.

١- سورة البقرة من الآية رقم (٢٥٦).
٢- سورة يونس الآية رقم (٩٩).
٣- سورة النساء الآيات (٩٧ - ٩٩).

ويوم أن نزل القرآن وقرر حرية القول قيدها فى الوقت نفسه بالقيود التى تمنع من العدوان ، واساءة الاستعمال ، وكان أول من قيدت حريته فى القول الرسول ﷺ وهو الذى جاء معلنا للحرية مبشرا بها ، وداعيا إليها ، ليكون قوله، وعمله مثلا يحتذى ، وليعلم الناس أنه لا يمكن أن يعفى أحد من هذه القيود ، وهو الموصوف بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » (١).

بذلك يمكننا أن نقول : إن الإسلام أباح لكل إنسان أن يقول ما يشاء دون عدوان ، فلا يكون شتاما ، ولا عيابا ، ولا قاذفا ، ولا كاذبا ، وأن يدعو إلى رأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادل بالتى هى أحسن ، وأن لا يجهر بالسوء من القول ، ولا يبدأ به ، وأن يعرض عن الجاهلين ... ولا جدال فى أن من يفعل هذا يحمل الناس على أن يسمعوا قوله ، ويقدروا رأيه فضلا عن بقاء علاقاته بغيره سليمة ، ثم بقاء الجماعة يدا واحدة تعمل للمصلحة العامة ... والأدلة على ما ذكرنا كثيرة ومعلومة فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة.

هذا هو مبدأ الحرية بشعبه الثلاث ، حين قرره الإسلام ، وجعله حقا لكل إنسان ، إنه فى ذلك لم يكن يجارى تطور الجماعة ، أو يلبى رغباتها ، لأن العالم كله فى ذلك الوقت لم يكن مهيأ لهذا المبدأ (الحرية) ، وإنما قرره ليرفع به مستوى الجماعة والعمل الحركى للدعوة الإسلامية ، ويدفع القائمين بأمرها (الدعاة) نحو التقدم ، والرقى ، ويسمو بهم عن الموطن الذى بهم فيه همجيتهم، وأرضاهم به جهلهم ، كذلك فإن تقرير هذا المبدأ ما يجعله لازما لتكميل العمل الحركى للدعاة بمايستلزمه من فقه فى معاملة من لا يدين بديننا ، بهذا نرفع حدة الخلاف والشقاق بين الجماعة المسلمة - وهذا هو الأهم - ، كما نوقظ حرية الاعتقاد لكل إنسان ، بتحرير عقله ، وإطلاق حرية تفكيره ، بعرض الدين الخاتم

١- سورة القلم الآية رقم (٤).

عليه دون عنت أو إكراه ، « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » [١] ، وهذا هو هدف الدعاة وواجبهم تجاه دعوتهم ، ليتحقق للحركة الإسلامية السمو والرفعة، وترتفع العوائق الحائلة لغايتها ، والخلاف العدائي بين القائمين بأمرها ، يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وما جاء النصر إلا بمراجعة الدعاة موقفهم وواقعهم الحركي ، ففقهوا أمره ، وساروا على هدى وبصيرة ، في فكرهم وسلوكهم ، متحققين بقول الله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحانه الله وما أنا من المشركين » [٢] .

هذا وبالله التوفيق .

دكتور/ فوزي عبدالعظيم رسلان قمر

١- سورة الغاشية الآيتان (٢١ ، ٢٢).

٢- سورة يوسف الآية رقم (١٠٨).

أهم مراجع البحث

١- القرآن الكريم.

٢- إحياء علوم الدين ، الغزالى ، ط مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة.

٣- الأزهر فى ندوة الفقه الإسلامى بعمان ، فضيلة الشيخ / جاد الحق على جاد الحق ، ط الأزهر ، القاهرة.

٤- الاعتصام ، للإمام الشاطبى ، ط دار التحرير ، القاهرة.

٥- التشريع الجنائى الإسلامى ، عبدالقادر عودة ، ط دار التراث ، القاهرة.

٦- الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبى ، ط دار الغد العربى ، القاهرة.

٧- الجامع الصغير ، للإمام السيوطى ، ط مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة.

٨- الجامع الكبير ، للامام السيوطى ، ط المطابع الأميرية ، القاهرة.

٩- الفقه الإسلامى ، فضيلة الشيخ/ جاد الحق على جاد الحق ، ط الأزهر ، القاهرة.

١٠- الفقه الإسلامى ، محمد سلام مدكور ، ط القاهرة.

١١- المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، محمد يوسف موسى ، ط القاهرة.

١٢- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط القاهرة.

١٣- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط القاهرة.

١٤- المقدمة ، للعلامة عبدالرحمن بن خلدون ، ط دار التحرير ، القاهرة.

١٥- الملل النحلل ، للإمام الشهر ستانى ، ط القاهرة.

١٦- إعلام الموقعين ، لابن القيم ، ط مطبعة السعادة ، القاهرة.

١٧- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ط الهيئة المصرية العامة ، القاهرة.

١٨- تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، ط دار الفكر ، القاهرة.

١٩- تطبيق الشريعة الإسلامية فى البلاد العربية ، صوفى أبو طالب ، ط القاهرة.

٢٠- تلبيس ابليس ، لابن الجوزى ، ط المتنبى ، القاهرة.

٢١- دستور الوحدة الثقافية ، محمد الغزالى ، ط دار الصحوة ، القاهرة.

٢٢- صفوة الصفوة ، لابن الجوزى ، ط دار الجيل ، بيروت.

٢٣- علم أصول الفقه ، عبدالوهاب خلاف ، ط القاهرة.

٢٤- لسان العرب ، لابن منظور ، ط دار المعارف ، القاهرة.

٢٥- مصادر التشريع الإسلامى ، السيد سابق ، ط الفتح للإعلام العربى ، القاهرة.

٢٦- نظام الحكم فى عصر الخلفاء الراشدين ، الباحث ، ط دار الإخلاص ، بنها.